زعيم اكاديمي اقتصادي في حياتي الجامعية البروفيسور سدني إفريات (Sydney Afriat)

د. مظهر محمد صالح

25 كانون الثاني 2026

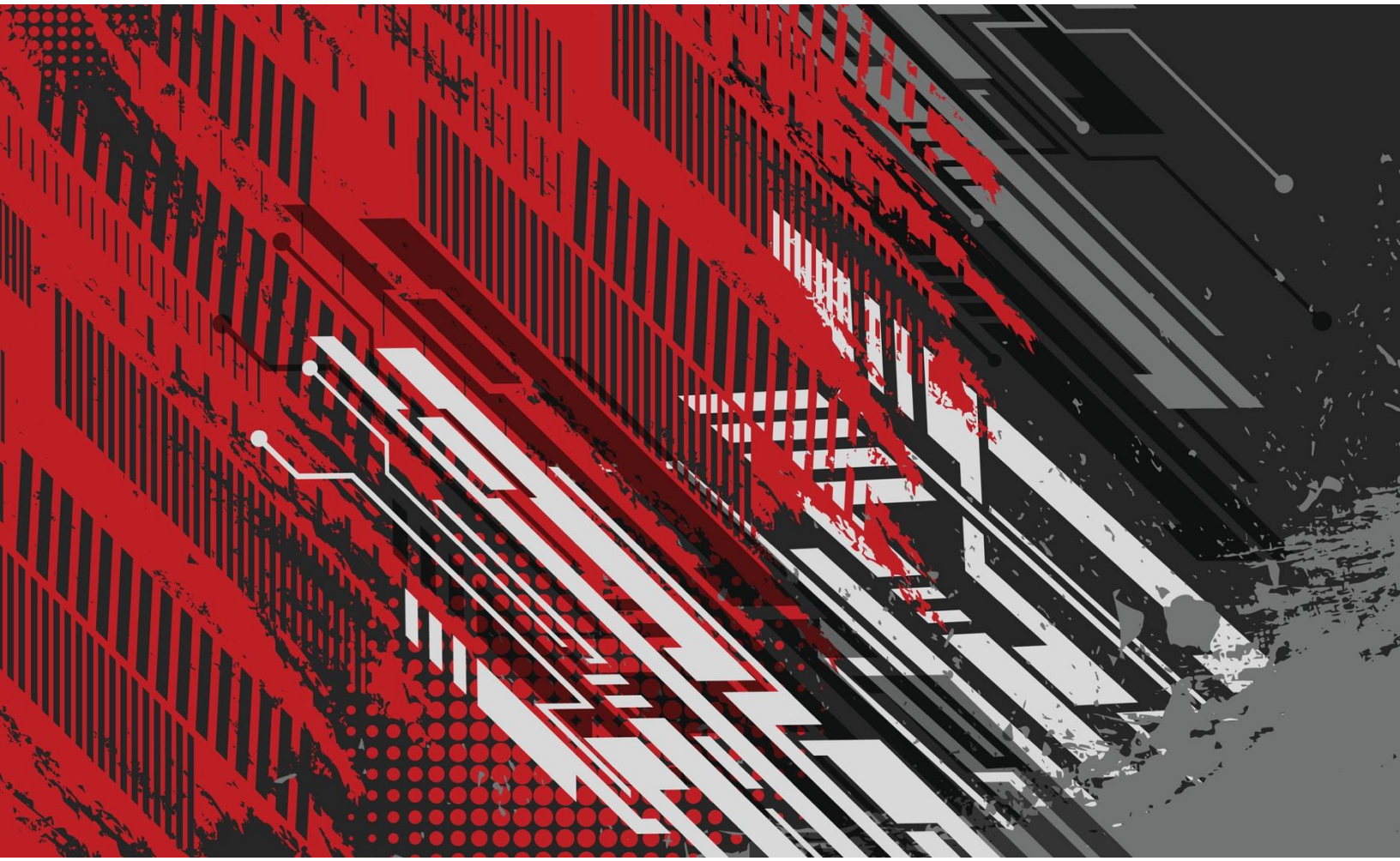

حقوق النشر محفوظة © 2025 | iraqieconomists.net | info@iraqieconoists.net | الهاتف: ٠٠٩٦٤٧٨٦٦٢٩٦٦٠٠+ | منذ عام ٢٠٠٩

زعيم اكاديمي اقتصادي في حياتي الجامعية البروفيسور سدني إفريات (Sydney Afriat)

تمهيد

عُد أفريات أحد أعلام الاقتصاد الرياضي والاقتصاد القياسي في القرن العشرين، وارتبط اسمه على نحو خاص بتطوير نظرية السلوك الاستهلاكي والتحقق الكشفي للتفضيلات (Revealed Preference Theory)، ولا سيما من خلال ما يُعرف بـ مبرهنة أفريات (Afriat's Theorem)، التي شكّلت اختراقًا منهجيًا في اختبار اتساق السلوك الاقتصادي مع فرضية تعظيم المنفعة، دون افتراض شكل دالي مسبق، بمعنى عدم الاخذ باقتصاد الفرضيات الذي يطلق عليه:(Hypothetical / Axiomatic Economics)

وهو الاقتصاد الذي يبدأ من افتراضات مسبقة عن سلوك الأفراد والأسواق، ثم يبني عليها نماذجه واستنتاجاته، سماته الأساسية تنطلق من مسلّمات مثل:العقلانية الكاملة، وتعظيم المنفعة أو الربح وتوازن السوق والمعلومات الكاملة أو شبه الكاملة.ويستخدم نماذج رياضية أنيقة ومغلقة، فضلاً عن كونه

يهتم بالاتساق المنطقي الداخلي أكثر من مطابقته للواقع. في حين ان توجهات العالم أفريات كانت قد بنيت على مايسمى اقتصاد الوقائع.

(Empirical / Revealed-Behaviour Economics)

وهو الاقتصاد الذي ينطلق من السلوك الملاحظ فعليًا، ثم يحاول فهم منطقه الداخلي دون فرض قالب نظري مسبق. وان من سماته الأساسية بانه يبدأ من البيانات، لا من المسلّمات. ويسأل: ماذا يفعل الناس؟ قبل ماذا يفترض أن يفعلوا؟ ويقبل بتعدد أنماط العقلانية ويختبر النظرية بدل افتراض صحتها، وان قوته هي القرب من الواقع الاجتماعي والاقتصادي وملاءمة أعلى للسياسات العامة، كذلك كشف الاختلالات البنيوية لا السلوكية فقط.

امتد تاريخ سدني أفريات الأكاديمي بين جامعات مرموقة في أوروبا (كمبردج واكسفورد)وأميركا الشمالية، وكان حضوره في جامعة أوتاوا – كندا علامة فارقة في تدريس الاقتصاد الرياضي لطلبة الدراسات العليا، حيث جمع بين الصرامة الرياضية والحدس الاقتصادي العميق، بعيدًا عن الاستعراض الشكلي للنماذج.

ففي أواخر عام 1982، كان آخر ما تتلمذتُ عليه في كورس دراسات عليا بجامعة أوتاوا، هو ذلك الدرس الجوهري الذي يختزل فلسفة أفريات العلمية بافكار مفادها:

أن الاقتصاد ليس معادلات تُفرض على الواقع، بل منطق يُستخرج من السلوك نفسه. كان يعلّمنا كيف يمكن للرياضيات أن تكون أداة كشف لا أداة إكراه، وكيف تُختبر الفرضيات من داخل البيانات لا من خارجها.

تلك التجربة لم تكن درسًا في الاقتصاد فحسب، بل كانت تكوينًا معرفيًا في معنى الانضباط العلمي، واحترام الواقع، والتواضع أمام البيانات ، وهي دروس تبقى أطول عمرًا من أي نموذج.

سألته ذات يوم:

لماذا تركتَ جامعة أوكسفورد - وكمبردج، واخترتَ أن تستقر في عاصمة كندا؟

هل كان خيار صدفةٍ قادتك إلى هنا، أم قرارًا محسوبًا؟

ابتسم افريات بهدوء، وأجابني بنبرة من يعرف ما يريد:

«ليس العالم من أتى بي إلى هنا، يا أيها الشاب القادم من الشرق... بل الهدوء».

ثم أضاف وهو يشير إلى الأفق البعيد:

«أوتاوا عاصمة، نعم، لكنها مدينة بلا صخب، بلا ادّعاء سياحي، مريحة للتفكير، صالحة للتأمل».

فعلى هامش فصل في الاقتصاد الرياضي اشتدت حوارات علمية في غرفته المخصصة التي حولها قاعة للدرس يختار بالغالب خمسة طلاب من بقاع العالم لا اكثر ، اذ تغطي الالفة الانسانية مع طلبته في حياة اكاديمية جافة عالية المعنى والانسانية...!!

كانت إجابته درسًا آخر، لا في الاقتصاد ولا في الرياضيات، بل في فلسفة المعرفة:

أن العقل الكبير لا يحتاج إلى ضجيج العواصم ليُبدع،

وأن بعض العقول تختار الهامش الهادئ كي ترى العالم أوضح.

كان البروفيسور سدني أفريات يقودنا بهدوء يشبه المدينة نفسها، من فكرة إلى أخرى، من دون أن يعلن صراحة أننا نغادر عالم (بول ساموبلسون)وندخل عالمًا آخر. كنا نفعل ذلك من خلال الأسئلة، لا الأجوبة.

كان ساموبلسون حاضرًا بوصفه الأب المؤسس: لنظرية السلوك الذي يكشف التفضيل. انها فكرة أنيقة، مقنعة، كافية في بداياتها. لكن أفريات كان يتوقف طويلًا عند ،ما بعدها، عند تلك اللحظة التي يسأل فيها العقل نفسه: هل ظلّ هذا السلوك وفيًا لمنطقه عندما تغيّرت الظروف؟

لم يكن يعنيه أن يكون الاختيار معقولًا مرة واحدة. كان يريد أن يراه متماسكًا عبر الزمن في رياضيات الطوبولوجياً. كان يعيدنا بصبر العالم إلى البيانات نفسها، كأنها الشاهد الوحيد الذي لا يجامل. هناك فقط، كان يقول ضمنيًا، يمكن أن نعرف إن كان المستهلك يعظّم منفعته، أم أن النموذج هو من يحاول تعظيم ذاته.

في تلك القاعة الصغيرة بجامعة أوتاوا، فهمنا أن (أفريات)لم يكن ينقض (ساموبلسون) بل يكمله. يوم نقل الاقتصاد من لحظة الاختيار إلى سيرة الاختيار. من تفضيل يُرى، إلى عقلانية تُختبر. من نظرية جميلة، إلى حقيقة قابلة للمساءلة.

ذلك الدرس لم يكن في الاقتصاد وحده. كان في المنهج، وفي الأخلاق العلمية أيضًا:
أن تحترم البيانات حتى عندما لا تخدم فرضيتك.
فاقتصاد أفريات لا يفرض العقلانية، بل يختبر وجودها داخل الوقائع. وأن تقبل بأن الصمت أحيانًا،صمت النموذج أمام الواقع ،أصدق من أي معادلة.
سالته ذات مره ماذا ينفع هذا الجفاف في المنطق الرياضي الطبولوجي خارج كل الافتراضات في اقتصاد ريعي احادي كاقتصاد بلادنا ؟ اجابني الرجل بهدوء ... لقد ادخلتني في دائرة تفكير اخرى ايها الشاب وهو يردد نعم:
وهنا تكتسب المبرهنة أهمية خاصة عند تطبيقها على الاقتصادات الريعية، حيث تتداخل الحوافز الاقتصادية مع التحويلات والدعم الحكومي، والدخل غير المرتبط بالإنتاج، وتشوهات الأسعار.
خصص افريات درسا محددا للتحول من عقلانية السوق إلى عقلانية الريع...!
اذ يفترض في الاقتصاد التنافسي الكلاسيكي، أن المستهلك يواجه أسعارًا حقيقية ويتخذ قراراته تحت قيد ميزانية واضح. كما يسعى لتعظيم منفعة مستقرة نسبيًا. غير أن الاقتصاد الريعي يطرح حالة مختلفة:
فالدخل لا يرتبط بالإنتاجية الفردية وان الأسعار قد تكون مدعومة أو مشوّهة وان قيود الميزانية غير صارمة (Soft Budget Constraints) او هشة.
وعلى وفق هذا السياق، اتاحت مبرهنة أفريات اختبار سؤال حرج لنا جميعا..!
هل سلوك الاستهلاك في الاقتصاد الريعي لا عقلاني، أم عقلاني ولكن وفق منظومة حوافز مختلفة؟
ذهبنا لنرى ماذا تكشف مبرهنة أفريات في الاقتصاد الريعي..!
اذ تقول المبرهنة إن:
السلوك قد يبدو "غير كفوء" أو "مفرطًا" ولكنه قد يكون منسجمًا تمامًا مع تعظيم منفعة. شرط أن تكون التفضيلات متسقة مع الأسعار والدخل كما هي فعليًا، لا كما نفترضها نظريًا أي أن: المشكلة ليست دائمًا في عقلانية الفرد، بل في عقلانية البنية الاقتصادية نفسها.
يومها اكتشفت دلالة ذلك على الحالة في بلداننا ذات الاقتصادات النفطية:

- الاستهلاك المرتفع
- ضعف الادخار
- الميل نحو السلع المستوردة
- محدودية الطلب على الإنتاج المحلي

اذ لا يمكن الحكم عليها أخلاقيًا أو سلوكيًا فقط، بل يمكن ،بمنهج أفريات، عدها: نتيجة عقلانية لتفضيلات تكوّنت داخل اقتصاد ريعي وهي تحمل إشارات سعرية مختلة.

وبناء على ما تقدم ، استنتج افريات باهمية الذهاب من نقد السلوك إلى إصلاح الإشارات،حيث افضت قراءة أفريات يومها إلى نتيجة سياساتية مهمة: انه لا جدوى من لوم المستهلك ولا من افتراض "سلوك غير رشيد"، بل المطلوب هو إصلاح منظومة الإشارات:

واقصد بها (إشارات الأسعار و الدعم والضرائب و هيكل الأجور و العلاقة بين الدخل والإنتاج) وبهذا، فالعقلانية (كما علّمنا أفريات) نتاج بيئة، لا صفة أخلاقية.

اذ يمكن القول ان مبرهنة أفريات منحتنا أداة فكرية نادرة مفادها، الفصل بين عقلانية السلوك واختلال النظام. كذلك اعادة توجيه النقد من الأفراد إلى البنى. و تؤسس في الوقت نفسه الى سياسات اقتصادية تُصلح الحوافز بدلًا من تجريم النتائج.

وعلى صعيد الأهمية الفكرية والاقتصادية، قادت اسهامات أفريات الى:

تحرير نظرية الطلب من القيود الشكلية الصارمة.

وعزّزت المنهج الاستقرائي–الرياضي في الاقتصاد.

كما أسّست لما عرف لاحقًا بـ نظرية التفضيلات المكشوفة الحديثة،وفتح المجال أمام استخدام واسع للطرق غير البارامترية في الاقتصاد القياسي.

وعلى صعيد تأثيره في الفكر الاقتصادي، فقد تأثرت أعمال العالمان:

أمارتيا سن و هال فاريان (Hal Varian) به و تاثر الاقتصاد السلوكي وتحليل البيانات الجزئية الحديثة بأفكار أفريات، ولا تزال مبرهنته تُدرّس في الاقتصاد الجزئي المتقدم، و الاقتصاد القياسي و اقتصاد الرفاه و تحليل السياسات القائمة على البيانات، ليعد اساساً لعصر المعلوماتية والذكاء الاصطناعي الراهن في تطور السياسات الاقتصادية . من صفوة الكلام فان أفريات صار الجسر بين مدرستين (مدرسة الفرضيات ومدرسة الوقائع) اذ تبرز مبرهنته هنا بوصفها نقطة تحول:

لا تفترض شكلًا لدالة المنفعة ، لكنها لا تتخلى عن الصرامة الرياضية في استخدم الطبولوجيا (و رياضيات الطوبولوجيا (Topology) و. هي فرع عميق من الرياضيات يُعنى بدراسة الخصائص النوعية للأشكال والفضاءات التي لا تتغيّر تحت التحويلات المستمرة، أي التحويلات التي لا تتضمن قطعًا أو لصقًا، بل شدًّا (أو ليًّا أو انثناءً فقط) و تختبر ما إذا كان السلوك الملاحظ يمكن عقلنته رياضيًا.

بذلك، فان اقتصاد أفريات لا يفرض العقلانية، بل يختبر وجودها داخل الوقائع. و الطوبولوجيا هنا لا تسأل: كم؟
بل تسأل: كيف هو متصل؟ وهو انتقال من الكم إلى البنية، ومن القياس إلى المعنى.

وبهذا فان اقتصاد الفرضيات: يفسّر الواقع إذا تشابه مع النموذج . في حين ان اقتصاد الوقائع: يعيد بناء النموذج ليفهم الواقع كما هو وان دلالة ذلك على السياسات في دول مثل البلدان الريعية يؤشر ان
الفشل ليس في «سلوك المواطن» بل في «منظومة الحوافز» وان الإصلاح الحقيقي يبدأ من تصحيح الإشارات لا من الوعظ الاقتصادي.
كما تعلمت حينها من ان اقتصاد الفرضيات يبني عالمًا منطقيًا، أما اقتصاد الوقائع فيحاول فهم عالمٍ معقّد.
والاقتصاد الناضج (كما اشره أفريات)هو ذاك الذي يُخضع الفرضية للواقع، لا العكس.

ختاما، تلك كانت أوتاوا...
وهكذا كان أفريات ... العالم الجليل كما عرفته قبل رحيله في 31 / كانون الاول -ديسمبر 2021.

المراجع (References)

- Afriat, S. N. (1967). The construction of a utility function from expenditure data. International Economic Review, 8(1), 67–77.
- Afriat, S. N. (1972). Efficiency estimation of production functions. International Economic Review, 13(3), 568–598.
- Samuelson, P. A. (1938). A note on the pure theory of consumer's behaviour. Economica, 5(17), 61–71.
- Varian, H. R. (1982). The nonparametric approach to demand analysis. Econometrica, 50(4), 945–973.
- Sen, A. (1977). Rational fools: A critique of the behavioral foundations of Public Affairs, 6(4), 317–344. & economic theory. Philosophy
- Green, J. R. (1995). Microeconomic Theory. & Mas-Colell, A., Whinston, M. D., Oxford University Press.
- Crawford, I. (2008). Best nonparametric bounds & Blundell, R., Browning, M., on demand responses. Econometrica, 76(6), 1227–1262.

عن الكاتب: الدكتور مظهر محمد صالح: باحث اقتصادي و اكاديمي. مستشار رئيس مجلس الوزراء العراقي.

عن الشبكة:

تهدف شبكة الاقتصاديين العراقيين الى التأسيس لمرجعية اقتصادية في العراق تعمل على اعطاء الاولوية للاقتصاد قبل السياسة وتنشر الثقافة الاقتصادية بين افراد الطبقة السياسية خاصة وأفراد المجتمع العراقي عامةً متبنّية خطابا اقتصاديا علميا وساعية الى موقعاً مؤثراً في الرأي العام والمجتمع العراقي يمكنها من إيصال كلمتها الى صاحب القرار السياسي والتأثير على قرارات السياسة الاقتصادية.

ملاحظة:

-لا تعبر الآراء الواردة في الإصدار بالضرورة عن آراء أو اتجاهات تتباها الشبكة، وانما تعبر عن رأي كاتبها.

iraqieconomists.net
info@iraqieconomists.net
WhatsApp +964 786 629 6600